السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ

للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير

٧٠١ — ٧٤٧ هـ

تحقيق

مصطفى عبد الواحد

الجزء الأول

١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م

دار المعرفة

للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف ٢٣٦٧٦٩ — ٢٤٦١٦١

ص.ب ٥٧٦٩

بيروت — لبنان

السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

وبعد : فهذا كتاب السيرة النبوية للإمام الحافظ ، أبى الفداء إسماعيل بن كثير ، أقدمه للأمة الإسلامية راجيا أن يكون فى نشره من الخير ما يحقق الفائدة وما يقدم سيرة الرسول الكريم فى صورة دانية إلى الكمال قريبة إلى الحقيقة دقيقة فى العرض ممحصة الروايات والأخبار .

إن الإمام ابن كثير وهو الحافظ المُتْقن قد جمع كل الأخبار عن حياة الرسول ودعوته وماسبقها من فترة الجاهلية ، وقد بذل جهدا فى تمحيص الأخبار ونقد أسانيدها ، وإن كان قد ترخص فى رواية بعض الأخبار الواهية كما سنذكر .

وعمله هذا يضع أمام القارئ كلَّ مايمكن الإلمام به فى هذا المجال ، ويجعله على بصيرة فى تفهُّم السيرة النبوية ووعْى أحداثها .

وقد آسَفنى أن تظل طبعة هذه السيرة الكريمة مليئة بالتشويه والتحريف بعيدة عن الدقة والضبط ، فآثرت عرضها صحيحة بريئة من التحريف والتصحيف قدر الإمكان ، وضَبْطَها وشرحَ الغريب فيها ، والتعليق على ما يُستبعد من الأخبار والآثار .

وسأعود إلى قصة هذا الكتاب وعملى فيه بعد الحديث عن مؤلفه والإلمام بشىء من أخباره [1] .

ابن كثير :

هو أبو الفداء عماد الدين إسماعيل ، بن عمر ، بن كَثير ، بن ضَوْء ، بن كثير ، ابن زَرْع ، القُرشى ، الشافعى .

كان أصله من البصرة ، ولكنه نشأ بدمشق وتربى بها .

ولد بمَجْدل القرية من أعمال مدينة بُصْرَى شرقى دمشق ، سنة سبعمائة أو إحدى وسبعمائة .

وتوفى بعد أن فقد بصره ، فى يوم الخميس السادس والعشرين من شعبان سنة أربع وسبعين وسبعمائة ؛ عن أربع وسبعين سنة .

نشأته :

كان أبوه خطيبا لقريته ، ، وبعد مولد ابن كثير بأربع سنين توفى والده ، فرباه أخوه الشيخ عبد الوهاب .

وعلى هذا الأخ تلقى ابن كثير علومه فى مبدأ أمره .

ثم انتقل إلى دمشق سنة ٧٠٦ فى الخامسة من عمره .

شيوخه :

كانت دراسة ابن كثير متجهة إلى الفقه والحديث وعلوم السنة ، إذ كانت الوجهةَ الغالبة فى عصره ، وشيوخه فى هذا المجال كثيرون .

---

(١) ترجمته فى شذرات الذهب ٦/٢٣١ . والدرر الكامنة ١/٣٧٤ وذيل تذكرة الحفاظ للحسينى ٥٨ . وذيل الطبقات للسيوطى .

فقد تفقّه بالشيخ برهان الدين إبراهيم بن عبد الرحمن الفزارى الشهير بابن الفركاح، المتوفى سنة ٧٢٩ .

وسمع بدمشق من عيسى بن المطعم ، ومن أحمد بن أبى طالب المعمَّر الشهير بابن الشحنة المتوفى سنة ٧٣٠ ؛ ومن القاسم ابن عساكر ، وابن الشيرازى ، وإسحاق ابن الآمدى ، ومحمد بن زراد .

ولازَم الشيخَ جمال يوسف بن المزكّى المِزّى، صاحب تهذيب الكمال ، المتوفى سنة ٧٤٢ .

وقد انتفع به ابن كثير، وتخرَّج به ، وتزوج بابنته .

كما قرأ كثيرا على شيخ الإسلام تقى الدين بن تيمية ، المتوفى سنة ٧٢٨ ، ولازمه وأحبَّه وتأثر بآرائه . وفى ذلك يقول ابن العماد : « كانت له خصوصية بابن تيمية ومناضلة عنه واتباع له فى كثير من آرائه ، وكان يفتى برأيه فى مسألة الطلاق ، وامتحن بسبب ذلك وأوذى » .

ويقول ابن حجر : « وأَخذ عن ابن تيمية ففتن بحبه وامتُحن بسببه » .

كما قرأ على الشيخ الحافظ المؤرخ شمس الدين الذهبى محمد بن أحمد بن قايماز المتوفى سنة ٧٤٨ .

وأجاز له من مصر أبو موسى القَرافى ، والحسينى ، وأبو الفتح الدبوسى ، وعلىُّ بن عمر الوانى ، ويوسى الختنى . وغير واحد .

وقد ولى ابن كثير مشيخة أم الصالح والتنكزية بعد إمامه الذهبى . كما ذكره الذهبى فى مسودة طبقات الحفاظ[1] .

---

(١) ذيل تذكرة الحفاظ للحسينى ٥٨ :

عصره :

عاش ابن كثير فى القرن الثامن الهجرى ، من بداية هـذا القرن إلى قرب منتهاه ، فى ظل دولة المماليك التى كانت تبسط سلطانها على مصر والشام .

وكانت فى عصره نكبات شديدة شهدها العالم الإسلامى ، ممثلة فى هجوم التتار ،وفى كثرة المجاعات والأوبئة ، وفى تقلب السلطة بين أمراء المماليك الذين كانوا يوالون الانتقاض بعضهم على بعض ..

ويكاد الإنسان لا يفتح سنة من سنوات حياة ابن كثير فى كتب التراجم والتاريخ إلا ويجد فيها أنباء المجاعات والأوبئة وهجوم الإفرنج والتتار ومصارع الأمراء ، مما لا يوصف بأنه حياة سياسية مستقرة .

ولـكن تلك الحقبة التى عاشها ابن كثير من عصر المماليك كان يسودها نشاط علمى ، تمثَّل فى كثرة المدارس واتساع نطاق التعليم وكثرة التأليف ، ولذلك أسباب مذكورة فى التاريخ من تنافس الأمراء وكثرة الأوقاف على العلماء وبناء المدارس واتصال الأقطار الإسلامية بعضها ببعض ، وغير ذلك .

ولـكن ذلك النشاط كان محصورا فى دائرة ضيقة دائرة الاتباع والتقليد والتلخيص والاختصــار والشرح ، كذلك كان هـذا النشاط منصرفا فى كثرته إلى العلوم الشرعية وما يخدمها .

ويبدو طابع ذلك العصر واضحا فى ابن كثير ، إذ كان انصرافه إلى علوم السنـة والفقه ، أو العلوم الشرعية بوجه عام وكانت مؤلفاته يغلب عليها طابع التأليف فى عصره ، وهو الميل إلى اختصار كتب الأقدمين ، أو إدماج بعضهـا فى بعض أو شرحهـا والتعليق عليها .

وإذا كان لابن كثير طابع تجديد تميَّز به ، فإنه قد اكتسبه من علاقته بابن تيمية وحبه له وتأثره بآرائه ، فقد كان ابن كثير كأستاذه ابن تيمية ينفر من الخرافات ويميل إلى الرجوع إلى السنة ويعتمد على التحقيق والتدقيق بوسيلته التى يملكها ، وهى نقد الأسانيد وتمحيص الأخبار .

كذلك كان ابن كثير فى تفسيره إماما وصاحب مدرسة ، إذ نفر من الإسرائيليات والأخبار الواهية ، كما نفر من التفلسف وإقحام الرأى فى كتاب الله ، وآثر منهج تفسير القرآن بالقرآن ثم بالحديث والأثر .

منزلته وآراء العلماء فيه :

احتل ابن كثير منزلة عالية فى الفقه والتفسير والحديث والفتوى ..

يقول عنه الذهبى : « الإمام المفتى المحدِّث البارع ، فقيه متفنن ، ومفسر نقَّال ، وله تصانيف مفيدة .

ويقول عنه ابن حجر : « اشتغل بالحديث مطالعة فى متونه ورجاله ، وكان كثير الاستحضار حسن المفاكهة ، سارت تصانيفه فى حياته ، وانتفع الناس بها بعد وفاته » .

ويقول عنه ابن تَغْرى بَرْدى : « لازَم الاشتغال ودأب وحصَّل وكتب ، وبرع فى الفقه والتفسير والحديث ، وجمع وصنَّف ، ودرس وحدَّث وألَّف ، وكان له اطلاع عظيم فى الحديث والتفسير والفقه والعربية ، وغير ذلك . وأفتى ودرس إلى أن توفى » .

وقد اشتهر ابن كثير بالضبط والتحرِّى والاستقصاء ، وانتهت إليه فى عصره الرياسة فى التاريخ والحديث والتفسير .

يقول عنه ابن حجى ، أحد تلامذته : « أحفظُ من أدركناه لمتون الأحاديث ورجالها ، وأعرفُهم بجَرْحها وصحيحها وسقيمها ، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك ،

وما أعرف أنى اجتمعت به على كثرة ترددى إليه إلا واستفدت منه » .

ويصفه ابن العماد الحنبلى فيقول :

« كان كثير الاستحضار قليل النسيان ، جيد الفهم يشارك فى العربية وينظم نظما وسطا .

قال فيه ابن حبيب : سمع وجمع وصنف ، وأطرب الأسماع بالفتوى وشنَّف ، وحدث وأفاد ، وطارت أوراق فتاويه إلى البلاد ، واشتهر بالضبط والتحرير »

ويقول عنه ابن حجر :

« ولم يكن على طريق المحدثين فى تحصيل العوالى وتمييز العالى من النازل ونحو ذلك من فنونهم ، وإنما هو من محدِّثى الفقهاء » .

ولكن السيوطى يجيب على كلام ابن حجر بقوله :

« العمدة فى علم الحديث على معرفة صحيح الحديث وسقيمه وعلله واختلاف طرقه ورجاله جرحا وتعديلا ، وأما العالى والنازل ونحو ذلك فهو من الفضلات ، لا من الأصول المهمة » .

شعره :

كان ابن كثير – كما قال ابن العماد – « ينظم نظما وسطا » ولا يُذكر له إلا القليل من النظم ، مثل قوله :

تمرُّ بنا الأيامُ تَتْرى وإنما نُسَاق إلى الآجال والعين تنظرُ
فلا عائدٌ ذاك الشبابُ الذى مضَى ولا زائل هذا المشيبُ المكدِّر

وعلى كل فهو لم يشتهر بقول الشعر .

أسلوبه :

كان ابن كثير يشارك فى العربية ، وثقافته الأدبية جيدة ، ولكن أسلوبه كان على مقتضى عصره من إيثار السجع والميل إلى المحسنات ، ويشتمل أسلوبه فى بعض الأحيان على ألفاظ لا تناسب مستوى ابن كثير .

وفى كتابه الذى نقدمه نماذج لذلك ، مثل استعماله كلمة « الأَذِيَّة » وكلمة « مُشْتَرَى » وغير ذلك من أساليب غير متناسقة وجمل غير متناسبة .

والحقيقة أن ابن كثير لم يكن ممن يهتمون بالعبارة أو يتجملون فى الأسلوب ، وإن كان أسلوبه فى التفسير قويا متناسبا ، وإنما هو إمام مفسِّر وفقيه محدث، ولم يكن أديبا متفننا يحرص على جمال العبارة وتناسق الأسلوب .

كتبه :

اشتغل ابن كثير بالتأليف والتصنيف ، وأكثر كتبه فى الحديث وعلومه ، ومؤلفاته معدودة ، وأهمها :

١ ـ تفسير القرآن الكريم

الذى قال فيه السيوطى : « لم يؤلَّف على نمطه مثله » .

وهو يعتمد على التفسير بالرواية ، فيفسر القرآن بالقرآن ، ثم بالأحاديث المشتهرة يسوقها بأسانيدها ، ثم ينقد تلك الأسانيد ويحكم عليها ، ثم يذكر الآثار المروية عن الصحابة والتابعين . وهو مطبوع مشهور .

٢ ـ « البداية والنهاية » فى التاريخ .

وهو موسوعة ضخمة ، ابتدأ فيه بذكر قصص الأنبياء وأخبار الأمم الماضية ، وفقا

لما ورد فى القرآن والأحاديث الصحيحة ، ويكشف زيف الإسرائيليات والغرائب والمناكير .

ثم يذكر أخبار العرب وأحداث الجاهلية ، ثم سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم حتى وفاته ، ثم يتابع أحداث التاريخ الإسلامى منذ خلافة أبى بكر حتى عصر ابن كثير فى القرن الثامن الهجرى .

ثم يختمه بأشراط الساعة والفتن والملاحم وأحوال الآخرة .

وتاريخ ابن كثير هذا مرجع دقيق موفق لا يزال عليه التعويل . قال عنه ابن تغرى بردى : « وهو فى غاية الجودة » . وهو مطبوع ، وإن كانت طبعة رديئة .

٣ ــ اختصار علوم الحديث لابن الصلاح .

وهو كتاب نافع أضاف فيه ابن كثير فوائد كثيرة ، ورتبه واختصره . وهو مطبوع مع تعليقات للمرحوم الشيخ أحمد شاكر باسم « الباعث الحثيث » .

٤ ــ مختصر كتاب « المدخل إلى كتاب السُّنن » للبيهقى ذكره فى مقدمة اختصار علوم الحديث .

وهو مخطوط .

٥ ــ رسالة فى الجهاد . مطبوعة .

٦ ــ « التكميل فى معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل » جمع فيه كتابى « تهذيب الكمال » للمزى و « ميزان الاعتدال » للذهبى . وزاد عليهما زيادات مفيدة فى الجرح والتعديل . وهو مخطوط .

٧ ــ « الهَدْى والسَّنَن فى أحاديث المسانيد والسُّنن » وهو المعروف بجامع المسانيد ، جمع فيه بين مسند أحمد والبزار وأبى يَعْلى وابن أبى شيبة ، مع الكتب الستة الصحيحين والسنن الأربعة . ورتبه على أبواب وهو مخطوط .

٨ ــ مسند الشيخين أبي بكر وعمر .

وفيه ــ كما قال ابن كثير فى سيرته التى بأيدينا صفحة ٤٣٣ ــ ذكر كيفية إسلام أبي بكر وأورد فضائله وشمائله وأتبع ذلك بسيرة الفاروق رضى الله عنه ، وأورد ماروا كل منهما عن النبى صلى الله عليه وسلم من الأحاديث وماروى عنه من الآثار والأحكام والفتاوى ، فبلغ ذلك ثلاث مجلدات ولله الحمد والمنة ! كما قال ابن كثير .

وهو مخطوط أيضا لا ندرى أين هو .

٩ ــ السيرة النبوية مطولة ومختصرة ذكرها فى تفسيره فى سورة الأحزاب فى قصة غزوة الخندق . ولم تنشر قبل .

١٠ ــ طبقات الشافعية . مجلد وسط ، ومعه مناقب الشافعى . مخطوط .

١١ ــ تخريج أحاديث أدلة التنبيه فى فقه الشافعية .

١٢ ــ وخرَّج أحاديث مختصر ابن الحاجب .

١٣ ــ كتاب المقدمات . ذكره فى اختصاره مقدمة ابن الصلاح وأحال عليه .

١٤ ــ ويذكر ابن حجر أنه شرع فى شرح للبخارى ولم يكمله .

١٥ ــ وشرع فى كتاب كبير فى الأحكام ، لم يكمل ، وصل فيه إلى الحج .

وهكذا نجد اتجاه ابن كثير نحو السنة وعلومها يتضح فى كتبه ، وتغلب عليه روح عصره فيتجه إلى المختصرات والشروح ونحوها ، وظهر ابتكاره فى كتابته لتاريخه الفذ : « البداية والنهاية » وفى تفسيره للقرآن الكريم .

ولم يخرج فى تأليفه عن النطاق الذى دارت حوله دراسته وأفنى فيه عمره ، وهو الحديث والتاريخ والتفسير والأحكام .

وقد شاع الانتفاع بالقدر القليل الذى عرف طريقه إلى الناس من كتب هذا الإمام

العظيم ، ولكن الأسى يغشانا حين نسأل : أين هذه الكتب التى تُذْكر له ولا يهتدى إلى مكانها ؟ ! والتى نعتقد أنها لو عثر عليها وقدمت إلى الناس لسدَّت فراغا وحققت نفعاً .

إن من المؤسف أن يبدَّد تراث عزيز وتحرم منه أمة محتاجة ..

ونحن ندعو من هنا كلَّ الذين يُعْنون بأمر التراث الإسلامى ، وخاصة المسئولين عن ذلك فى الدولة : أن يبحثوا عن آثار هذا الإمام العظيم ، وأن يهيئوا لكتبه النافعة السبيلَ كى تأخذ طريقها إلى أيدى الناس ، وأن يعاد تقديم كتبه المطبوعة فى صورة صحيحة لائقة ، بعيدة عن التجارة والاستغلال .

هذا الكتاب :

ولكتابنا هذا الذى نقدمه اليوم قصة ..

فلقد كان الخيط الذى أمسكنا به هو أن ابن كثير ذكر فى تفسيره فى سورة الأحزاب فى قصة غزوة الخندق ، أنه قد كتب السيرة النبوية مطولة ومختصرة ، حيث يقول : « وهذا كله مقرر مفصل بأدلته وأحاديثه وبَسْطه فى كتاب السيرة الذى أفردناه موجزا وبسيطا ولله الحمد والمنة » .

ومعنى ذلك أن كتابته للسيرة النبوية قد عرفت طريقها إلى أيدى الناس فى عصره ، ولكن البحث فى ناحية المخطوطات لم يدل على وجود تلك السيرة ككتاب مستقل ، ويبدو أنه حينما ألف كتابه الضخم « البداية والنهاية » قد أدمج تلك السيرة فيه ، وأن شهرة ذلك الكتاب وانتشاره فى الأنحاء ، قد جعل الناس يقرأون تلك السيرة فيه ، ولم يعُدْ لها كيان مستقل ككتاب ، وإذا كان ابن كثير قد ذكر أنه له السيرة النبوية

مبسوطة ، أى مطولة ، فإنه لا يعقل أن يكتب فيها أكثر من ذلك القسم الموجود بكتابه « البداية والنهاية » .

ومن هنا فقد اتجهتُ إلى نشر « السيرة النبوية لابن كثير » وهى ذلك القسم الذى أفرده ابن كثير لأخبار العرب فى الجاهلية وسيرة النبى صلوات الله وسلامه عليه وتاريخ دعوته حتى وفاته .

على اعتبار أن هذا القسم هو السيرة النبوية المطولة التى أشار إليها ابن كثير فى تفسيره .

والذى دعانى إلى ذلك أسباب منها :

١ ـ أن تلك السيرة قد شغلت نحو ثلاثة أجزاء من كتاب البداية والنهاية ، من أواخر الجزء الثانى حتى أواخر الجزء الخامس ، وهى بذلك موزعة بين أربعة أجزاء.

٢ ـ أن هذه الأجزاء من البداية والنهاية مرتفعة الثمن جدا ، حتى لقد بلغ ثمن الجزء الثالث وحده أربعة جنيهات مصرية إن وجد ! ! تبعا لاحتكار التجارة فى المراجع وقلة النسخ الموجودة .

٣ ـ أن هذه الطبعة المشار إليها مليئة بالتحريف والتشويه بصورة فظيعة ، ولا أدرى كيف ظلت هذه الطبعة تتداول فى أيدى العلماء والطلاب مع أنها لا تكاد تخلو صفحة منها من تحريف أو تصحيف أو سقط .

تلك الأسباب جعلتنى أرى فى نشر السيرة النبوية لابن كثير تحقيقاً لفوائد كثيرة . . .

أهمها تعميم النفع بها بعد أن كانت محصورة فى أيدى قلة ممن يقدرون على شراء البداية والنهاية كلها بثمنها المرتفع .

وكذلك تحقيق قصد ابن كثير حين كتب تلك السيرة المطولة وأراد أن تشيع وحدها بين الناس . .

وكذلك إنصاف ذلك العمل الجليل من أن يظل فى صورته الشائهة المليئة بالتحريف .

سيرة ابن كثير :

ونقف هنا مستعرضين كتابة ابن كثير فى سيرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، متأملين فى خصائصه باحثين عن منهجه .

١ ـ إن أول ما نلمسه فى سيرة ابن كثير أنه اهتم بالرواية بالأسانيد ، تمشيا مع صبغته الغالبة عليه كإمام محدث ، وأكثر مروياته عن الإمام أحمد والبيهقى ، وأبى نُعَيم .

فلم يكتف بنقل ما كتبه أهل السِّيَر أمثال ابن إسحاق وموسى ابن عُقْبة ، ولكنه جمع ما رواه أهل الحديث وبذلك اكتسب مزية يتفرد بها بين من كتبوا فى السيرة .

وقد نقد ابن كثير بعض الأسانيد عند ما يكون المتن غريبا ، ليحكم على بعض الأحاديث ، وأحيانا يبين درجة الحديث دون أن ينقد السند .

٢ ـ ثم نجد ابن كثير يمتاز بأنه ينقل عن بعض كتب السير المفقودة مثل كتاب موسى بن عُقْبة ، ومثل كتاب الأموى فى المغازى ، كما ينقل عن بعض شروح السيرة مثل الروض الأنف للسهيلى ، والشفا للقاضى عياض .

٣ ـ وفى مجال الاستشهاد بالشعر لا يهمل ابن كثير هذه الناحية ، ولكنه لا يتابع ابن هشام فى كل مروياته من الشعر فيختصر بعضها ويهمل البعض الآخر .

٤ ـ وبالجملة فإن ابن كثير يحرص على جمع كل ما كتب فى الموضوع الذى يتناوله ،

ولـكنه لا يدمج الأحاديث والأخبار بعضها فى بعض ، بل يحتفظ لـكل نقل بطابعه ومكانه ، وكثيرا ما يعوزه الترتيب فى النقل ، فلا ينسق الأخبار التى ينقلها حتى تـكون وحدة منسجمة ، فأحيانا يبدأ بالخبر المطوّل ، ثم يذكر بعده أخبارا تحتوى على جانب من هذا الخبر أو تـكرره .

٥ ـ فإذا تتبعنا نُقول ابن كثير عن غيره وجدنا فيها ظاهرة عجيبة ..

هى : أنه يـكاد لا يلتزم نص أى شىء ينقله . . ! فنقوله عن ابن إسحاق أغلبها بالمعنى ، وقد تتبعت ذلك فى بعض الصفحات ، ورأيت أن إثبات الفروق بين ابن كثير وابن إسحاق شىء يطول مداه ، فابن كثير يقدم ويؤخر ويزيد وينقص ، ويغير ويبدل ويفوت بهذا التغيير والتبديل كثير من جمال عبارة ابن إسحاق وتناسقها .

كذلك نجد روايات ابن كثير للأحاديث تختلف بعض الاختلاف عما فى أيدى الناس من الـكتب التى ينقل ابن كثير عنها . .

فأحاديث البخارى التى يرويها ابن كثير بقوله : « وقال البخارى » لا تنطبق حرفيا مع صحيح البخارى الذى بأيدينا . .

كذلك القول فى روايته عن صحيح مسلم وعن مسند أحمد وعن دلائل النبوة لأبى نعيم وعن دلائل النبوة للبيهقى ، وعن الشفا للقاضى عياض وعن الروض الأنف للسهيلى . .

تـكاد لا تجد خبرا مطابقا بحروفه لما فى الـكتب المتداولة ، فلا يخلو الأمر من تغيير أو نقص أو اختصار . .

وحين نقف أمام هذه الظاهرة نبحث عن أسبابها فإن هناك أحد احتمالين :

١) إما أن يكون ابن كثير ـ وهو الإمام الحافظ المتقن ـ كان يعتمد على حفظه وروايته ولا ينقل عن النسخ المتداولة .

٢) وإما أنه كانت هناك نسخ أخرى تختلف عما وصل إلينا من هـذه الـكتب .

وعلى كل فإن مثل ابن كثير حجة فى باب الحديث ولـكنها على أى حال ظاهرة تستلفت النظر أن تـكون روايات ابن كثير للأحاديث ونقوله عن الـكتب مخالفة لما فى أيدينا من هذه الـكتب . . وهى مخالفة لفظية يسيرة فى بعض الأحيان .

٦ ـ فإذا ما تفحصنا منهج ابن كثير فى الروايات ، رأيناه لا يبالى برواية كثير من الأخبار الواهية وخاصة فى أخبار الجاهلية وهتاف الجان وقصصه ..

وقد كان بإمكانه ألا يلتفت إلى هذه الأخبار التى لا تتمالك أمام النقد ، لـكنه كان يبرىء نفسه بأمرين :

ا) ذكر السند فى كل خبر يثبته ، وبذلك يلقى التبعة على غيره .

ب) أنه كان يعلق على بعض هـــذه الأخبار بأنه « غريب جـداً » أو « لم يخرجوه » ونحو ذلك مما يضعف جانب الخبر . . لـكننا مع ذلك نود أن لو أهمل ابن كثير هذه الأخبار التى ليس لها سند من العقل أو الحقيقة ، والتى تزحم الأذهان وتشوش على الحقائق . . وخاصة فيما يتصل بحياة الرسول الـكريم صلوات الله عليه ، فمثلا الحديث الذى يرويه عن البيهقى عن العباس أنه قال للرسول صلى الله عليــه وسلم : « رأيتك فى المهد تناغى القمر وتشير إليه بإصبعك ، فحيث أشرت إليه مال » ! ثم يذكر موافقة الرسول على ذلك حديث لا يتفق مع العقل أو مع حقائق الوجود ، ولا يغنينا بعد ذلك أن يقول ابن كثير : « تفرد به أحمد بن إبراهيم الحلبى وهو مجهول » .

إن مثل هذا الحديث يفتح ثغرة أمام أعداء الإسلام ليهجموا على السيرة النبوية من

باب أمثال هـذا الحديث من الواهيات والموضوعات . .

كذلك خبر خالد بن سنان ، وهتاف الجان وأساطيره ، سار فيها ابن كثير شوطا بعيدا ممتلئا بالخرافات والأساطير ..

لكننا مع ذلك ننتحل العذر لابن كثير فى إثبات مثل هذه الأخبار ، إذ كان عصره يحتفل بها ويهتم برواياتها ، وإذ كان قصده فى كتابه الجمع والاستقصاء ومادام قد أخلى تبعته بإسناد كل خبر إلى راويه واهتم بالتخريج والحكم ، فإنه بذلك يكون قد أدى واجبه وقام بما عليه .

٧ ـ إن المطالع للسيرة النبوية لابن كثير يحمد لهذا الرجل جهده الذى قام به ، إذ مزج أخبار السيرة بروايات الأحاديث فسنّ بذلك نهجا جديدا لم يكن من قَبْلَه يهتمون به .

وإذ جمع كلّ مايمكن فى هذا المجال ، فوضع أمام المطالع لكتابه مادة وافية تمكنه من الدراسة والإحاطة والاستيفاء .

وقد أعان ابن كثير على ذلك عصرُه المتأخر وإحاطته بالأحاديث وإجادته للروايات والأخبار .

منهج التحقيق :

اعتمدت فى إخراج السيرة النبوية لابن كثير على مايأتى :

١ ـ نسخة مصورة من البداية والنهاية لابن كثير تحمل رقم ١١١٠ تاريخ بدار الكتب المصرية ، وهى مصورة عن مكتبة ولى الدين ٢٣٤٧ بالآستانة . وإليها الإشارة بالحرف (ا) .

٢ ـ نسخة مخطوطة من البداية والنهاية بالمكتبة التيمورية تحمل رقم ٢٤٤٣ تاريخ وهى ناقصة من أولها .

٣ ـ النسخة المطبوعة من البداية والنهاية سنة ١٣٥١ بمطبعة السعادة وقد قوبلت على أصلين الأصل المصور المشار إليه فى هوامشها بالنسخة المصرية. وعلى نسخة محفوظة بالمدرسة الأحمدية بحلب وعلى كل فإن مخطوطات البداية والنهاية المذكورة لا تتسم بالدقة ، إذ أن فيها أخطاء أشرت إلى كثير منها فى هوامش هذا الجزء ، ويبدو أنها كتبت فى عصور متأخرة ، أو تولَّى نسخها من لا يعوِّل على التحقيق .

وقد كان جهدى فى إخراج هذه السيرة متجها إلى ضبطها وتنقيتها من الأخطاء التى خرجت بها إلى الناس فى النسخة المطبوعة الشائعة من البداية والنهاية وتشارك فى أكثرها النسخَ المخطوطة ، فرجعت إلى الأصول التى أشار إليها ابن كثير ، مثل كتب السير وكتب الحديث ، عدا بعض مالم يتيسر الرجوع إليه مثل معجم الطبرانى وهواتف الجان للخرائطى ودلائل النبوة للبيهقى .

ولم أحاول إثبات الفروق بين ابن كثير وبين كل ماينْقل عنه ، إذ تبينت ـ كما أشرت إلى ذلك قريبا ـ أن ابن كثير يخالف فى كتابه النصوصَ التى بأيدى الناس من الكتب التى ينقل عنها ، فلا يخلو الأمر من زيادة أو نقص أو تغيير أو تبديل ، ولكنى أثبت بعض الفروق على سبيل المثال ، مثل الفروق بينه وبين البخارى ودلائل النبوة لأبى نعيم ومكارم الأخلاق للخرائطى ، والروض الأنف للسهيلى ، ومسند أحمد وسيرة ابن هشام والشفاء ونحو ذلك ، ولو أنى التزمت إثبات كل الفروق بينه وبين إسحق أو البخارى أو أحمد وغير ذلك ، لطال الأمر واتسع المدى ، وليس فى ذلك كبير فائدة .

كذلك أثبت أهم الفروق بين النسخ المخطوطة والمطبوعة على ندرة ذلك .

ولم أعول فى التعليق إلا على تصويب الأخطاء وشرح مايغمض من المفردات ، ولم أتوسع فى التعريف بالأعلام، لأن ذلك لا فائدة منه فى مثل هذا الكتاب ، وحتى لايخرج

بنا الأمر إلى أن يصير الكتاب حاشية من الحواشى القديمة ، إذ لا فائدة فى التعليق على كل مايمكن التعليق عليه ، بل الفائدة فى التعليق على مايجب التعليق عليه ، وقد يلمس القارئ أن أسانيد الروايات والأحاديث لم تظفر بما ينبغى لها من التعريف بهؤلاء الرجال وذكر وفياتهم ، ولو أنى فعلت ذلك لخرجنا بكتاب فى رجال الحديث ما أرى قارئ السيرة النبوية بحاجة إليه ، وفى هذا الباب كتب متخصصة ميسرة لمن أرادها .

ويُلْحظ أنى تدخلت بنقد بعض الأخبار التى ذكرها ابن كثير ، ولم أملك أمامها سوى الاستبعاد العقلى ، وقد رأيت ذلك واجبا حتى يتنبه القارئ إلى أنه ليس مطالبا بتصديق كل ما أثبته ابن كثير فى كتابه هذا مادام ليس ثابتا بدليل شرعى صحيح أو ليس له سند من العقل ،وخاصة الأشعار التى تبدو عليها الصفة والتكلف،والأخبار الأسطورية التى لا تناسب يقظة البشرية وارتقاءها ، وليس جانب السند هو الذى يهمنا فى الخبر فحسب ، بل يُطْلب أن يكون المتن أيضا منتسبا إلى الحقيقة بعيدا عن التزوير .

وقد نقد ابن خلدون ، وهو الإمام الحجة ، كثيرا من الأخبار بهذا المنهج ، منهج الاستبعاد العقلى وبيان منافاة الخبر للسنن الكونية والظروف التاريخية ، كما أشار إلى ذلك فى أول مقدمته .

ولم أر فائدة فى تخريج الأخبار ، أى ذكر أماكن وجودها فى الكتب ، إذ أن أكثر أخبار السيرة مشترك بين الكتب التى تتناولها ، فلا يفيد القارئ أن نذكر أن هذا الخبر مثلا موجود فى سيرة ابن هشام وتاريخ الطبرى وشرح المواهب والشفاء والروض الأنف ودلائل النبوة لأبى نعيم وعيون الأثر والاكتفا للكلاعى والوفا لابن الجوزى والسيرة الحلبية وما إلى ذلك من كتب السيرة بالإضافة إلى مايمكن أن يوجد فيه الخبر من كتب الحديث ، وفى كل ذلك نذكر أرقام الصفحات ، إنَّ ذلك كان يملأ حيزاً كبيرا لا حاجة

إليه ، ويكفى أن يعلم القارئ أن أكثر أخبار السيرة النبوية وماقبلها من فترة الجاهلية مشترك بين هذه الكتب التى ذكرناها وغيرها من كتب الحديث والسيرة .

***

إن الذى عنيت به هو أن تخرج هذه السيرة الكريمة مضبوطة بريئة من التحريف والتشويه الذى كان يحيط بها فى طبعة البداية والنهاية ، وأن أشرح مايحتاج إلى الشرح من المفردات وأن أشير إلى ما أصلحته من أخطاء ، وما عثرت عليه من أهم الفروق ، وأن أنبه إلى مايستبعد من الأخبار .

ولا أزعم أنى أديت كل مايجب علىّ فى إخراج هذا الكتاب ، ولكنى بذلت ما أمكن حسب الطاقة والظرف . وإنى اليوم وأنا أقدم الجزء الأول من هذه السيرة ، أخلص النية فى بذل ما يمكن فى سبيل إخراج بقيتها فى أقرب ثوب إلى الصحة والكمال ..

إن الظروف التى طبع فيها هذا الجزء ، ولم أكن فيها قريبا من المطبعة،بل اضطرتنى ظروف العمل إلى أن أكون بعيدا عنها ، قد جعلت فرصة لوقوع بعض الأخطاء التى تداركتها فى آخر الكتاب ، وبعضها مطبعى بحت ، والآخر سهو ونقص ، ومنها قسم هو من أخطاء أصول الكتاب تبينته من المراجع ونبهت إليه حتى يكون القارئ على بصيرة من أمره .

وحسبى فى هذا العمل نيتى وقصدى ، ولكل امرئ ما نوى ..

راجياً من الله سبحانه أن ينفع به وأن يهيئ لى إتمامه بما يرضيه ، إنه واهب الرشد ومانح التوفيق ، له الحمد فى الأولى والآخرة ، نعم المولى ونعم النصير ؟

القاهرة { ٢٣ من ذى الحجة سنة ١٣٨٣
٥ من مايو سنة ١٩٦٤ }

مصطفى عبد الواحد